موقع الأديب
★ علي احمد باكثير ★
www.bakatheer.com

تطويع الأسطورة الأجنبية للفكرة الإسلامية في مسرح باكثير

د. حامد أبو أحمد - مصر

علي أحمد باكثير صاحب دور ريادى فى ثقافتنا المعاصرة . ففى مجال الشعر الحر أو الشعر الجديد لم يعد أحد يجادل فى أن باكثير هو أحد رواد هذا الشعر بل إن الدكتور نذير العظمة فى كتابه " مدخل إلى الشعر العربى الحديث – دراسة نقدية " جعله الرائد الأول . وفى هذا يقول : " .. وهكذا فإن الشاهد التاريخى والزمنى لا يدعم وحده ريادة باكثير التى بدأت بترجمة " روميو وجوليت " وانتهت بتأليف مسرحية " إخناتون ونفرتيتى " ، بل إن اعتراف السياب مباشرة ، ولويس عوض مداورة ، والأعمال المسرحية الشعرية التى استمرت على نهج باكثير كلها تدفع بريادته إلى المقدمة " (١) .

وفى المسرح كتب عددًا كبيرا من المسرحيات ، وبعضها يقوم على أسطورة أجنبية أو عمل يستلهم الأسطورة مثل " مأساة أوديب " ، و" فاوست الجديد " ، و" إخناتون ونفرتيتى " ، و " أوزيريس " ، و " الفلاح الفصيح ". وفى هذه الدراسة سوف نقتصر على ثلاثة من هذه الأعمال فقط ، وهى " مأساة أوديب " ، و " فاوست الجديد " و " أوزيريس " لنرى كيف طوع باكثير هذه الأساطير أو هذه الأعمال القائمة على أسطورة للرؤية الإسلامية والأفكار النابعة من التصورات الإسلامية .

---

(١) انظر د . نذير العظمة ، " مدخل إلى الشعر العربى الحديث – دراسة نقدية " ، النادى الأدبى الثقافى بجدة ، شعبان ١٤٠٨ هـ / أبريل ١٩٨٨ م ، ص ١٥٩ . وانظر كتابنا " تحديث الشعر العربى – تأصيل وتطبيق " الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م ، صفحة ٤٢ – ٤٧.

باكثير أيضا له إبداعات أخرى من أشهرها روايته " وا إسلاماه " التى كان لها أصداء واسعة ، خاصة حين تحولت إلى فيلم سينمائى . كذلك هو صاحب الملحمة الإسلامية الكبرى عن عمر بن الخطاب .

الأدب والأسطورة

على الرغم من أن القرن العشرين يقال عنه عادة إنه القرن الذى شهد ازدهار العلوم ، وتقدم التكنولوجيا ، وتطور البحوث والدراسات العلمية ، إلا أنه فى الوقت ذاته يُعتبر هو القرن الذى ازدهرت فيه الأسطورة سواء فى الحركات الطليعية التجديدية فى الأدب مثل الابتداعية ، والماورائية والدادائية ، والسيريالية وغيرها أو فى المجالات الأخرى البحثية مثل علوم الأنثروبولوجيا ، والحفريات المعروفة ، وعلوم النفس .... الخ . ولهذا فإن الكاتب الأرجنتينى المشهور خورخى لويس بورخيس له كلمة شائعة تقوم : " الأسطورة فى بداية الأدب وفى منتهاه " . والواقعية السحرية فى أدب أمريكا اللاتينية فى القرن العشرين تقوم على مثلث ، أضلاعه هى : الجانب العجائبى مثل " ألف ليلة وليلة " وحواديت الجدّات ، والجانب السيريالى ، والجانب الأسطورى . فالأسطورة إذن بمفهومها القديم أو الحديث جزء لا يتجزأ من أدب القرن العشرين . بل إننا لا نستطيع تفسير هذا الأدب إلا إذا لجأنا إلى الأسطورة ، سواء فى الشعر عند السياب ، ونازك ، والبياتى ، وصلاح عبد الصبور ، وأدونيس وغيرهم ، أو فى المسرح عند توفيق الحكيم وباكثير وسواهما ، أو فى القصة القصيرة عند محمد حافظ رجب وغيره .. وهكذا نستطيع أن نقول إن الأسطورة كانت عنصرا فاعلا ومهيمنا فى بعض الأحيان عند كثير من الكتاب ، سواء فى الآداب الأجنبية أم فى الأدب العربى .

الأسطورة عند باكثير وتوفيق الحكيم

ذكر الدكتور محمد أبو بكر حميد فى مقدمته لمسرحية " فاوست الجديد " لباكثير أن " على أحمد باكثير (١٩١٠ -١٩٦٩ م) انطلق فى كل ما كتب عن التصور الإسلامى للكون والوجود والحياة . وقد استطاع أن ينطلق بأدبه على جناحى هذه الرؤية المستنيرة إلى آفاق عالمية ، فلم يقتصر فى أعماله الأدبية عامة والمسرحية خاصة على معالجة الموضوعات والقضايا المرتبطة بالعرب والمسلمين زمانا ومكانا ، بل انفتح على التراث الإنسانى وحضارات ما قبل الإسلام ، يستوحى تاريخها وأساطيرها ، ويتخذ من مادتها أشكالا فنية يعبر من خلالها عن أفكار جديدة " [٢]

ولا شك أن باكثير لم يكن يعمل وحده فى هذا المضمار ، بل سبقه إلى ذلك توفيق الحكيم الذى كتب عددا من المسرحيات المستلهمة من أعمال قديمة تقوم على أساطير مثل الملك أوديب " و " بجماليون " وبراكسا : أو مشكلة الحكم " وهناك أعمال تستلهم حكاية أو أسطورة أو قصة فى الثقافة العربية ، مثل " شهر زاد " و " وأهل الكهف " و " يا طالع الشجرة " و " وإيزيس " و " مصير صرصار .. الخ . ومن الواضح أن توفيق الحكيم عانى معاناة شديدة فى نقله للعمل من بيئته ومجاله ، فى الثقافة اليونانية مثلا ، إلى بيئة وجو مختلف تماما فى الثقافة العربية الإسلامية . وقد حكى لنا هذه المعاناة فى مقدمته العبقرية لمسرحيته " الملك أوديب " ، وهى مقدمة تقع فى حوالى ثلاث وأربعين صفحة ، وتدل على أن توفيق الحكيم كان شديد الوعى بالاختلاف الكبير بين التراجيديا عند اليونان ،والتراجيديا فى عصر النهضة الأوربى ، ثم الأعمال التراجيدية التى نسجت بعد ذلك على هذا المنوال عند المؤلفين الأوروبيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وإذا كان الاختلاف شديد الوضح فى داخل الثقافات الغربية التى تجمعها أصول واحدة ، فما بالك بكاتب مثل توفيق الحكيم يحاول

---

[٢] انظر " فاوست الجديد .. مسرحية من أربعة فصول " لعلى أحمد باكثير ، والمقدمة بقلم د. محمد أبو بكر حميد / مكتبة مصر ، القاهرة ، ٢٠٠١ م ،ص ٣ .

نقل الأسطورة إلى بيئة وثقافة مختلفة تماما؟! . ومما لا شك فيه أن ما سوف نقوله عن توفيق الحكيم سينطبق على مؤلفنا على أحمد باكثير ، لأنه من المؤكد أنه أيضا عندما قرر أن يكتب " مأساة أوديب " و " فاوست الجديد " عانى أشد المعاناة .

يتساءل توفيق الحكيم : ما هى روح التراجيديا عند الإغريق ؟ ويرد على ذلك : " إنها تنبع من شعور دينى .. كل جوهر التراجيديا هى أنها صراع ظاهر أو خفى بين الإنسان والقوى الإلهية المسيطرة على الكون .. صراع الإنسان مع شىء أكثر من الإنسان ، وفوق الإنسان " .[٣] فهل كان يمكن أن تستمر التراجيديا الإغريقية على هذا التصور القائم على الصراع بين الإنسان والقوى الإلهية المسيطرة على الكون ؟ الذى حدث هو أن التراجيديا فى عصر النهضة الأوربى أمست صراعا بين الإنسان ونفسه ، فهى عند " كورنى " قائمة على حوادث التاريخ ، وفى هذا يقول برونتيير محبذًا : " أوليس التاريخ هو مشهد صراع بين إرادة وإرادة . إنه لمن الطبيعى أن يغدو التاريخ ملهما لمسرح يقوم بأكمله على الإيمان بسلطان الإرادة " . أما عند " راسين " فقد أصبحت التراجيديا صراعا بين عاطفة وعاطفة [٤] . وهكذا ظلت التراجيديا ذات الأصول الإغريقية تتطور وتدخل عليها تغييرات مع كل مؤلف يحاول اقتحام هذا المجال ، إلى أن جاء توفيق الحكيم فى ثقافتنا العربية الإسلامية ، وأراد أن تكون له إسهاماته فى هذا الجانب . فماذا حدث له ؟

يحكى لنا توفيق الحكيم أنه عندما اختار " أوديب " هذه الشخصية التى أبدعها سوفوكليس اليونانى وقع فى حيرة زمنا . ومن المستحسن أن ننقل هنا نص كلامه . قال : " فأنا أعرف الجهد الذى أمض من سبقنى فى تناولها من الشعراء والمؤلفين على مدى القرون ! ... فإذا تذكرت قصور " سينكا " فى " أوديب " ، وإخفاق "كورنى " وضآلة فولتير بالقياس إلى " سوفوكل " أصابنى

---

[٣] توفيق الحيكم ، " الملك أوديب " ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٧٧ ، مقدمة المؤلف ،ص٣٤ .

[٤] المرجع السابق ، ص٣٥ .

دوار ، فإذا تركت أولئك العباقرة من الشعراء والتفت إلى من تناول أوديب من الثائرين المعاصرين ،وما تعرضوا له من خيبة أو سقوط نالنى جزع ، فقعدت حينا يائسا متكاسلا مؤجلا إنجاز هذا العمل ،حتى نهضت أخيرًا أشجع نفسى وأقول : فلأعمل وأخطىء خيرًا من أن أجزع وأقعد ، ولتكن لى فى أولئك المخفقين أسوة ، فلأخفق مثلهم ، فهم على كل حال قد أدوا واجبهم [٥]

ومعروف أن مسرحية أوديب تناولها عدد كبير من المؤلفين بلغ عددهم فى فرنسا وحدها حتى عهد الحكيم تسعة وعشرين مؤلفا ، منهم سان جورج دى بوهلييه ، وجان كوكتو ، وأندريه جيد . ومن الانجليز الشاعر بيتس، ومن الألمان الشاعر هوفمانستال . ومعظم هؤلاء حسب رأى الحكيم نفسه أخفقوا فى أن يكونوا على مستوى تراجيديا سوفوكليس . أما الحكيم ، ففى رأى الدكتورة منيرة كروان ، مترجمة " أوديب ملكا " لسوفوكليس إلى اللغة العربية من اليونانية مباشرة وكاتبة المقدمة ، قد أخفق أيضا فى كثير من الجوانب ، من بينها أن أوديب فى مسرحية توفيق الحكيم قد ظهر عاريا من البطولة ، منغمسًا فى الأكاذيب ، حيث جعله الحكيم يقول عن نفسه : " إننى لست بطلا ، ولم ألق وحشا له جسم أسد وجناح نسر ووجه امرأة يطرح ألغازًا . هذا خيالكم الساذج أحب تلك الصورة وأذاع ذلك الوهم ، ولكن الذى لقيت حقا هو أسد عادى ، كان يفترس المتخلفين خلف أسواركم استطعت أن أقتله بهراوتى ، وألقى بجثته فى البحر ، وأن أخلصكم منه ، غير أن تيرسياس، هذا الضرير البارع ، أوحى إليكم من تلقاء نفسه لا من إلا له أن تتصنّبوا ذلك البطل ملكا عليكم ، لأنه يومئذ ما كان يريد كريون ملكا " [٦] وتعلق الدكتورة منيرة كروان على هذا الموضوع بقولها : " فهذا الجزء – كما حكم عليه النقاد وكما يشعر حتى غير المتخصصين فى النقد الأدبى عند قراءة المسرحية أو مشاهدتها على المسرح – هو أكثر أجزاء المسرحية بشاعة ، بل إننى أعتبره سقطة غير مبررة من قبل المؤلف

---

(٥) المرجع السابق ، ص٤٤ .

(٦) توفيق الحكيم ،، " الملك أوديب " ، الطبعة المذكورة ، ص٧٥-٧٦ .

وقد حاول من تناول أسطورة أوديب فيما بعد تجنب هذه البشاعة وتلافى هذه السقطة " [٧] وتشير الدكتورة منيرة إلى صدمة أو سقطة أخرى فى مسرحية الحكيم تتمثل فى مشهد فقء أوديب عينيه بعد انتحار زوجته يوكاستا . وترى الدكتورة أنه لا وجه للمقارنة بين هذا المشهد فى مسرحية سوفوكليس والمشهد نفسه فى مسرحية الحكيم ، والكلام بالطبع لصالح المؤلف اليونانى . وهناك سلبية ثالثة – فى رأى الدكتورة منيرة أيضا – هى أن شخصية أوديب عند الحكيم لم تكن هى الوحيدة التى عانت من تجريدها من مظاهر العظمة البطولية كافة ، بل إن كل شخصيات المسرحية تقريبا شاركت أوديب الحكيم مصيره التعس ، وخاصة العراف تيرسياس ، وإن كان بعض النقاد يرى أن الحكيم وظف شخصية العراف بمهارة حتى يصور من خلال علاقته بأوديب علاقة الملك المصرى بحاشيته ، وكيف صار ألعوبة فى أيديهم آنذاك " [٨] .

كان الحكيم مدركا تمام الإدراك أن الإخفاف يمكن أن يكون من نصيب جميع المؤلفين الذين تصدوا للكتابة عن أوديب بعد المؤلف اليونانى سوفوكليس. وفى هذا يقول ردًّا على مقدمة الترجمة الفرنسية لمسرحيته والتى كتبها آلويس دى مارنياك المتخصص السويسرى فى آداب اللغة اليونانية : " عزيزى مسيودى مارنياك : إن إخفاق ثلاثين مؤلفا فى مختلف العصور ، منهم الوثنى ، والمسيحى، ثم أخيرا المسلم ، أمام مأساة أوديب ، لهو فى ذاته مأساة ! وعلة هذا الإخفاق تحتاج هى أيضا إلى دراسة " . ويشرح الحكيم السبب الرئيسى لهذا الإخفاق ، ويرى أنه راجع إلى موضوع أوديب نفسه ، وهو موضوع القدر القاسى المحتوم ، الذى لا اختيار فيه ولا مرد له ، يجثم بكل وطأته على امرئ من قبل ميلاده . ويقول الحكيم:" إن هذا هو سر القوة فى مأساة سوفوكليس ". وعلى المؤلف الذى يرتضى هذه الفكرة أن يمضى بها لا يلوى على شىء آخر،

---

(٧) انظر مقدمة د . منيرة كروان لترجمتها لمسرحية " أوديب ملكا " لسوفوكليس ، المركز القومى للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٨ ،ص ٣٥ .

(٨) المرجع السابق ص٣٥ -٣٨ .

ومن هنا يمكن أن يسلم من الإخفاق شريطة أن يكون مؤمنا بها إيمان الإغريق القدماء . ومن هنا تأتى كارثة المؤلف الذى يتصدى لأوديب وهو لا يريد أن يقبل هذه الفكرة ، أو يجعلها قاعدة لعلمه . وهذا التوجه قاسم مشترك لدى كل من كتبوا عن أوديب بعد مؤلفها الأول سوفوكليس . فكل واحد منهم أراد أن ينطلق من القاعدة التى تتفق مع التصورات الدينية التى يؤمن بها ، وهذا لابد أن يحدث خلخلة فى الخرافة اليونانية فى أصلها القديم . أى أن المؤلفين – حسب تعبير توفيق الحكيم – قد واجهوا أيضا نوعا من " أبى الهول " يقطع عليهم الطريق : هو ذلك التناقض الذى يقعون فيه ، فهم لا يستطيعون قبول الخرافة كما هى ، ولا يستطيعون فى عين الوقت تناول قصة " أوديب " بغير الخرافة[٩].

ومما لاشك فيه أن بعض من تصدوا لأسطورة أوديب ، سواء من المسيحيين أو المسلمين كان لهم هدف واضح أعلنوه بصراحة ، على نحو ما رأينا عند توفيق الحكيم ، وهو أنه ينطلق من قاعدة مغايرة لأصل الأسطورة أو الخرافة اليونانية . وفى ذلك يقول :" أما فيما يتصل بى باعتبارى مسلما ، فإن عقيدتى الدينية ترفض فكرة الله المدبر لأذى الإنسان تدبيرًا سابقا بدون مقتض أو جريرة ، بل إن فكرة التدبير السابق لما سينزل بالإنسان من أحداث لا تجد قبولا عند أهم الفلاسفة من المسلمين . فابن رشد يقول عن الله : إنه مريد لكون الشىء فى وقت كونه ، وغير مريد لكونه فى غير وقت كونه . فأما أن يقال إنه مريد للأمور المحدثة إرادة قديمة فبدعة .. الخ " (١٠)

أما على أحمد باكثير فإنه لا يختلف كثيرا عن توفيق الحكيم ، لأن تعامله مع الأسطورة القديمة ينطلق من رؤية إسلامية . وفى هذا يقول د. محمد أبو بكر حميد : " ... وهكذا سار باكثير فى مسرحية " فاوست الجديد " على منهجه فى التعبير عن فكرة إسلامية بشكل غير مباشر من خلال التعامل مع الأسطورة البعيدة عن العروبة نسبا والإسلام عقيدية ، على نحو ما فعل فى "

(٩) توفيق الحكيم ، " الملك أوديب " تعقيب على المقدمة الفرنسية ص٢١٣ –٢١٤ .

(١٠) السابق ، ص٢١٤ .

إخناتون ونفرتيتى " و " مأساة أوديب " ، ورسم شخصية فاوست الجديد فى إطار الآية الكريمة التى صدّر بها مسرحيته : " إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور " (سورة فاطر ، آية ٢٨) دون إخلال بأجوائها التاريخية وبنية هيكلها الأساسية " (١١).

ومن الملاحظ أن مسرحية " مأساة أوديب " لعلى أحمد باكثير تتصدرها الآية الكريمة: "ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون " قرآن كريم

وهناك كلمة على لسان أوديب تقول : " أنا الماضى ياترزياس فلأخل الطريق للمستقبل، وأنا اليأس ياترزياس فلأمض ليجىء الأمل " .وكأن باكثير يريد أن يقول للقارىء أو المشاهد إن مسرحيته تقوم على جناحين : الخرافة القديمة ، والتصور الإسلامي .

وقبل أن ننتقل إلى المقارنة بين " أوديب ملكا " لسوفوكليس ، و " مأساة أوديب " لباكثير يحسن أن ننقل عن باكثير نفسه رؤيته للتصدى لشخصية مثل أوديب ، أوفاوست ، أو إخناتون ونفرتيتى أو غيرهم . فقد قال فى حديث بصوته لإذاعة الكويت فى أبريل عام ١٩٦٩: " أيا كان الموضوع الذى يعالجه الأديب العربى سواء كان (أى الموضوع) عربيا أو غير عربى ، فالعبرة بالروح التى تكمن فى مضمون العمل الأدبى ، إذ يجب على الدوام أن تكون عربية أصيلة . وبهذه الطريقة يستطيع الأديب العربى أن يعالج ما يشاء من الأساطير الفرعونية أو السومرية أو اليونانية أو الهندية علاجا جديدًا يتسم بالروح العربية ، ويعبر عن وجهة النظر العربية ، ويصور موقفنا من قضايا الوجود والكون والحياة . وبهذه الطريقة أيضا يستطيع الأديب العربى أن يجسد الرسالة العربية الخالدة فى عمل أدبى حى يعرف العالم كله موضوعه فى صورته الأسطورية الأولى ، فلا يجد أبناء الأمم الأخرى صعوبة فى فهم

(١١) د. محمد أبو بكر حميد ، المقدمة المذكورة ،ص١٤ .

وإدراك المغزى الجديد الذى يحمله ذلك العمل ، ومن ثم يتأثرون به فيتأثرون فى الحقيقة بالمعانى المنبثقة من رسالة العرب الخالدة " (١٢)

ومعروف أن على أحمد باكثير كان من أشد المؤمنين برسالة الإسلام الخالدة ، وأنه كان دائما يحاول أن ينطلق فى أعماله الأدبية من رؤية إسلامية . كما كان ينفر أشد النفور من الأدباء والكتاب الذين وضعوا أنفسهم تحت مظلة الغرب ، وكان يرى أن هؤلاء خارجون عن المسار الصحيح ، ولا يدركون قيمة مالديهم من تراث إنسانى عالمى . ولعلنا مازلنا إلى الآن نشكو من توجهات أمثال هؤلاء ، وهذا ما تناولته بشكل مفصل فى كتابى " نقد الحداثة " .

بين أوديب سوفوكليس و " أوديب " باكثير

تقوم مسرحية سوفوكليس على أسطورة تبدأ من كادموس ذى الأصل الفينيقى الذى أسس مدينة كادميا فى اليونان بناء على نصيحة من الإله أبوللو ، وقد عرفت هذه المدينة فيما بعد باسم " طيبة " . كان لكادموس كثير من الأبناء وكثير من الأحفاد، من بينهم لابداكوس والد الملك لايوس .وهذا الملك هو والد أوديب ، ولن يظهر فى المسرحية لكن الأحداث تدور من حوله ، ثم إن موته على يد ابنه أوديب وزواج أوديب من يوكاستا زوجته والتى هى فى الوقت نفسه أمه سوف يشكل البؤرة الأساسية للمأساة فى المسرحية . لم ينجب لايوس من زوجته يوكاستا ، ومن ثم أصابه القلق فتوجه سرا إلى معبد دلف ، وأبلغ أنه من الأفضل له ألا ينجب ، لأنه لو أنجب طفلا ذكرا فسوف يقتله عندما يكبر ويتزوج أمه . أصابت هذه النبوءة لايوس بالفزع ، وحاول أن يتفادى معاشرة زوجته ، لكنها حملت ، فعزم الملك لايوس على التخلص من الطفل عقب ولادته. وبالفعل أعطى لايوس الطفل لأحد الخدم ليرميه عند جبل كيثايرون ، وكان هذا الجبل يقع على الحدود بين طيبة وكورنثا .وعند الجبل التقى الخادم

(١٢) نقلا عن د. محمد أبو بكر حميد ، المقدمة المذكورة ، ص٤ .

براع كورنثى فأعطاه الطفل ليربيه ويعطف عليه ، وبهذا نجا الطفل من القتل . وقد أعطى الراعى الطفل إلى ملك كورنثا بوليبوس وزوجته ميروبى اللذين أبديا فرحا شديدا له لأنهما لم يكونا ينجبان ، وقد أسمياه " أوديب " أى متورم القدمين، وذلك من الأصفاد التى كبل بها بأمر من الملك لايوس للتخلص منه . مرت الأيام بأوديب فى بيت أبويه ملكى كورنثا ، وذات يوم أقيم احتفال فأسرف أحد الموجودين فى الشرب ، وعندئذ تفوه بكلمات وصف فيها أوديب بأنه لقيط . ومن تلك اللحظة بدأ القلق يساور أوديب فتوجه سرًا إلى معبد دلف وسأل عن الحقيقة فقيل له إن قدره هو أنه سوف يقتل أباه ويتزوج أمه .ذعر أوديب من هذه النبوءة ، وغادر المعبد عازما على ألا يعود إلى كورنثة ، وأثناء الطريق ، وعند مفترق ثلاثة طرق قابل أوديب موكبا صغيرًا على رأسه شخص مهيب يركب عربة وحوله أتباعه . وعندئذ نشب عراك بين أوديب والشخص المهيب كانت نتيجته قتل الجميع ما عدا شخصا واحدًا استطاع الهرب . وبالطبع قتل الشخص المهيب فى هذه المعركة ، وسوف يتضح فيما بعد أنه هو الملك لايوس. واصل أوديب سيره حتى اقترب من مدينة طيبة ، وهناك استوقفه وحش كان يعرف باسم أبى الهول ،وكان هذا الوحش يلقى بألغازه على كل من يمر عليه ، ومن يفشل فى الرد على سؤاله يكون مصيره الموت وكان أبو الهول ينشر الفزع والخوف والدمار فى طيبة ويثير الرعب فى قلوب الناس ، وما إن مر عليه أوديب حتى ألقى إليه بالسؤال الذى يلقيه على كل الناس ويفشلون فى الإجابة عليه وهو :" ما هو الحيوان الذى يمشى فى الصباح على أربع ، وفى الظهر على اثنين ، وفى المساء على ثلاث ؟" فأجابه أوديب :" أيها الوحش الذى أرعب المدينة ، لن تغلبنى ! إن هذا الحيوان الذى تسألنى عنه هو الإنسان .. فهو الذى فى الصغر يحبو على يديه وقدميه ، وفى الكبر يستوى ماشيا على قدميه ، وفى الشيخوخة يدب على قدميه وعلى عصا " . وما إن قام أوديب بحل اللغز وقدم الإجابة حتى قام أبو الهول بإلقاء نفسه من فوق التل ليلقى حتفه على الفور . وبذلك عمَّت الفرحة فى طيبة ، وأراد الناس مكافأة أوديب الذى خلصهم

من أبى الهول فأعلنوه ملكا على طيبة ، حيث تزوج من يوكاستا زوجة الملك لايوس ، وعاش الاثنان فى رغد ورخاء وأعقبا ولدين وبنتين ، وشهدت طيبة فترة ازدهار حقيقية . لكن إرادة الآلهة كانت لهما بالمرصاد ، والقدر نافذ لا محالة ، ومن ثم فإن الفترة التالية سوف تشهد ذلك الوباء الفتاك الذى أصاب محاصيل الأرض وقضى على الخصوبة لدى الماشية والنساء وحول كل شىء إلى بوار ، وأثار الفزع والخوف فى قلوب أهل طيبة . وكان لابد من البحث عن سبب هذا الغضب الإلهى ، وسوف نكتشف أنه مرتبط بشيئين ورط ا القدر الملك أوديب وهما : قتله لأبيه الملك لايوس ، وزواجه من زوجة لايوس التى هى فى الأصل أمه . وبالطبع فإن كل هذا لن ينكشف إلا بعد تنامى الأحداث الدرامية حول شخصية أوديب ، وكيف رأى من واجبه أن يكشف عن القاتل ، وأن يطهر مدينة طيبة من الدنس ، وهو لا يدرى أنه هو الشخص المقصود . ولذلك عندما كان أوديب يعيش فترة البحث عن الشخص الذى جلب على طيبة كل هذا البلاء ، دار حوار بينه وبين كريون أخى زوجته يوكاستا ، سأله فيه عن النبوءة التى حملها من الإله فرد عليه كريون :

إذا سوف أخبرك بما سمعته من الإله

إن الإله فويبوس (أبوللو) يقول بطريقة واضحة لا لبس فيها

إننا يجب أن نطرد الدنس خارج أرضنا

وألا نتعهده بالرعاية حتى يستعصى على العلاج [١٣]

وتمضى الأحداث ، ويتأكد أوديب من أنه هو الذى جلب الطاعون للمدينة بقتله لأبيه من أمه ، وعندما لا تجد يوكاستا (الزوجة / الأم) من مخرج إلا الانتحار يقوم أوديب بفقء عينيه . وتتأكد وطأة المأساة فى هذه

---

[١٣] الترجمة للدكتورة منيرة كروان " العمل المذكور ، ص ٦٤ ، وكل ما سوف نورده من أبيات من مسرحية " أويب ملكا " لسوفوكليس هى من ترجمة الدكتورة منيرة .

الأبيات التى جاءت على لسان الكورس ، تقول :

هل هناك مصير أقسى من مصيره ؟ هل تعرفون

شخصا تحولت حياته إلى مصائب متوالية وآلام مستمرة مثله؟

واحسرتاه عليك ، يا أوديب

أيها الابن التعس ، الذى جمع فراش الزوجة نفسها

بينك وبين أبيك ، وصار مرفأ آمنا لكل منكما

كيف .. كيف تحملت الأرض التى حرثها أبوك

أن تحمل غرسك فى صمت طوال هذه السنوات ، أيها المسكين ؟

إن الزمن الذى يراقب كل شىء قد كشف حقيقتك رغما عنك ،

وحكم على زواجك بأنه ليس بزواج

ليتنى ما عرفتك قط

يا ابن أتريوس التعس ،

فإننى أذرف الدمع حزنا عليك

ومن فمى تخرج آهات اللوعة والحسرة

والآن ينتهى أمرى معك

وتنتهى حياة أوديب هذه النهاية التعسة ، وهو يذرف الدموع من عينيه اللتين فقأهما ، ويطلب من كريون أن يوارى أخته يوكاستا التراب ، وأن يتركه يذهب إلى جبل كيثايرون ، وهو الجبل الذى اختاره أبوه ليكون قبرًا له عندما كان طفلا . ويلعن أوديب الراعى الذى نزع القيد من قدميه .لقد أنقذ حياته

وخلصه من الموت، ولكنه بذلك لم يقدم له خدمة " فلو أننى كنت قدْ مُتُّ آنذاك ، ما سببت هذا القدر من الألم لأحبائى "ويطلب أوديب حضور ابنتيه ليقول لهما :

ابنتـــــى الحبيبتـــــين ، أيـــــن أنتمـــــا ؟
تعاليـــا هنـــا ،تعاليـــا إلـــى يـــدى أخيكمـــا الـــذى
حَـــوّل عينـــى أبيكمـــا البـــراقتين إلـــى مـــا تريانـــه الآن
ويســـتمر أوديب فـــى كلامـــه إلـــى أن يقـــول
ســـوف تســـمعان أبشـــع الكلمـــات : إن والـــدكما قتـــل
والـــده وتـــزوج تلـــك التـــى أنجبتـــه ،ج
وفـــى الـــرحم نفســـها التـــى ولـــد منهـــا
وضـــع نطفتـــه وأنجـــبكم

هذا هو الملخص العام للأسطورة والمسرحية اليونانية ، فماذا فعل على أحمد باكثير فى مسرحيته " مأساة أوديب " ؟

أولا : أحدث باكثير تعديلات فى وظائف شخصيات المسرحية : فالكاهن الأعمى ترزياس فى عمل سوفوكليس هو المتهم بحياكة المؤامرة ضد أوديب وهو الذى واجهه بالحقيقة : إنك سبب البلاء الذى حل على هذه المدينة ، لأن قاتل لايوس الذى تبحث عنه هو أنت نفسك . أما كريون أخوجوكاستا زوجة أوديب فإنه متهم من أوديب بأنه يتآمر مع ترزياس للوصول إلى عرش طيبة . أما فى مسرحية باكثير فإن ترزياس هو الكاهن الأعمى المطرود من المعبد لوقوفه ضد افتراءات الكهنة وأكاذيبهم ، وخاصة الكاهن الأكبر لوكسياس ، مدبر المؤامرة ضد أوديب . وفى هذا يقول ترزياس مخاطبا أوديب : " إن لوكسياس افترى ذلك الوحى من عنده ، ولكنه عمل على تحقيقه بتدبيره ومكره

حتى وقع كل ما تنبأ به "(ص ١٢٩) وكريون فى مسرحية باكثير شخص غير متهم ، بل إنه شديد الإخلاص لمليكه وزوج أخته أوديب . إذن فعنصر الشر عند باكثير يتمثل فى لوكسياس كبير كهنة معبد دلف ، أما ترزياس فهو الكاهن المصلح الثائر ضد أوضاع المعبد والمطرود منه ، وهو الذى وقف إلى جانب أوديب حتى آخر لحظة مواجها مؤامرات الكهنة وترهاتهم .

ثانياً : أوديب فى مسرحية باكثير شخص يتعرض لمؤامرة شنيعة من كهنة معبد دلف ، وهو حتى لو أخطأ فإن الإله الحق سوف يغفر له توبته ولذلك دار الحوار التالى بين ترزياس وأوديب :

ترزياس : هون عليك يا أوديب فلكل عسر يسر .

أوديب : ويلك يا هذا .. الأرض تميد بى ، والسماء توشك أن تساقط علىّ كسفا ، وأنت ساكن فى مكانك تقول لى : هون عليك يا أوديب !!

ترزياس : لا تبتئس ، فلن يلقاك أعظم مما قد لقيت . إن هذا الحزن الكبير الذى يعتلج فى قلبك ، وتلتهب به كل قطرة من دمك لدليل على أن الإله سيرحمك ويقبل توبتك .

أوديب : الإله يرحمنى ! ، لا تُعدنى ياترزياس إلى كفر أشد من كفرى الأول أين كان إلهك هذا إذ ترك هذا الكاهن المجرم يرتكب كل هذه الآثام وينزل بى وبأسرتى كل هذه الكوارث ؟ أفكان موجودًا إذ ذاك أم غير موجود ؟

ترزياس : أوديب ! اتق الله ربك ولا تقولن فى ذاته هجرًا .

أوديب : ويلك ياترزياس .. أتنكر على المظلوم كلمات ينفس بها عن ذات صدره ، ولا تنكر على من ظلمه الضربات التى صبها على رأسه ورءوس ذويه ؟

ترزياس : إنما ظلمك الكاهن الأكبر يا أوديب ، ثم ظلمت أنت نفسك . إن الإله لا يظلم أحداً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ! .

ويمكن أن نمضى مع هذا المشهد لنرى أن أديب عند على أحمد باكثير شخص عادى يحمل تصورات ومفاهيم إسلامية ، ويتحدث بلغة مستلهمة من

النص القرآنى . فنحن إذن أمام أوديب مختلف اختلافا كبيرًا عن أوديب فى التراجيديا الإغريقية . إنه تصور إسلامى لشخصية أوديب ، ومن ثم فإنه لا يحمل إلا صبغة قليلة من أوديب الأصلى . ولهذا فإن هذا التغيير فى وظائف الشخصيات بما فى ذلك شخصية أوديب نفسه متعمد ومقصود ، وهذه هى النقطة الثالث .

رابعا : إن مسرحية على أحمد باكثير تقوم على العقل لا على وطأة القدر، والدليل على ذلك هذه الكلمات التى خاطب بها ترزياس الكاهن الأعمى المطرود شعب طيبة قائلا : " ياشعب طيبة .. إن الإله خلقكم وأعطاكم عقولا تزنون بها الحق من الباطل ، وتميزون الخير من الشر ، وتعرفون بها ما ينفعكم وما يضركم، فلا تعطلوا عقولكم لقول كاهن أو ملك ... الخ "

خامسا : تتردد فى مسرحية باكثير عبارات ذات طابع إسلامى خالص ، مثل "سبحانك يا إلهى ما أعدلك ! " و " قل الحق يا أوديب فإنك أمام محكمة الشعب وأمام الإله الخبير الذى يعلم السر وأخفى " و " إن الإله لا يظلم أحدًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .... الخ "

سادسا : يضع على أحمد باكثير حلا إسلاميا لمأساة أوديب ومشكلته ، وهو التوبة على الطريقة الإسلامية ، ولهذا نجد كريون يخاطب شعب طيبة قائلا: " من حقه علىّ وعليكم أن نسأل الإله له الرحمة والمغفرة ، إذ كان لا يعلم حين قتل لايوس أنه أبوه ، وحين تزوج جوكاستا أنها أمه . إن النكبة التى حلت به لأجدر أن تستدر رثاءكم له من أن تثير غضبكم عليه "

سابعا : يمنح على أحمد باكثير الشعب دورًا قويا ، والشعب هنا يقابل الكورس فى مسرحية سوفوكليس .

وتبقى كلمة أخيرة هى أن باكثير يستخدم لغة عربية قوية مستلهمة فى بعض الأحيان من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأفكار الإسلامية الذائعة مثل قول جوكاستا تخاطب نفسها : " ويحك ياجوكاستا ! الأرض كلها تأتمر بك، والسموات كلها إلب واحد عليك " ، أو قولها موجهة الخطاب إلى أوديب : "

ويلك يالايوس .. لا تحيلن فرحى برجوع شبابك همًا وترحا (تلين لهجتها) حنانيك يازوجى العزيز لا تسخر بى فإنى بحاجة إلى عطفك وحنانك!"

التصور الإسلامى فى "أوزيريس" و"فاوست الجديد"

فى هاتين المسرحيتين وفى غيرهما يمضى على أحمد باكثير فى إضفاء الطابع الإسلامى على الأسطورة الناشئة فى بيئة أخرى وثقافة أخرى . ففى مسرحية أوزيريس يقوم الصراع على ثنائية الخير والشر : الخير يمثله أوزيريس وزوجته إيزيس ومن يدور فى فلكهما ، والشر يمثله ست شقيق أوزيريس . وكانت إيريس ترغب منذ البداية أن يقضى زوجها على ست ، الذى هو فى رأيها أصل الشر ، ولكنها طيبة أوزيريس وسمو نفسه وميله دائما إلى الخير جعله لا يرتكب جُرما كهذا على الرغم من أن ست لم يتردد فى إزاحته عن الملك عندما قدر على ذلك ، والتنكيل به وتمزيقه . كل ما فعله أوزيريس مع أخية أنه رفض طلبه بأن يكون نائبا له عند السفر خوفا من أن يبطش بالناس ، فأوزيريس مثال للملك العادل الذى يرى نفسه خادما للشعب وليس العكس . أما مؤامرات ست فإنها على طول المسرحية لا تنتهى : مرة يحيك مؤامرة عن أن إيزيس تحبه ويقول هذا الكلام لزوجته التى هى أختها ، ومرة يدعى أن إيزيس اقترحت عليه أن يقتل زوجها ، ومرة يطلب من زوجته أن تغتال إيزيس وأوزيريس ، ومرة يتهم زوجته بأنها ربما تكون تحب أوزيريس . أما جريمته الكبرى فهى قتله لأخيه أوزيريس بعد أن نصب له أحبولة وأدخله فى التابوت ثم أقفل عليه وأمر بأن يلقى التابوت فى النيل ، وظلت إيزيس تبحث عن التابوت حتى تم العثور عليه عند شاطئ منطقة جبيل فى لبنان .. وهكذا عبر التابوت النيل ودخل فى مياه البحر المتوسط حتى عثر عليه حاكم جبيل . وقام أوزيريس من تابوته ، ومن شدة طيبته مال إلى العفو عن أخيه ، لكن ست ظل يبحث عن وسيلة لا تستطيع إيزيس أن تتصرف معها حتى هداه تفكيره الشيطانى إلى تقطيع جثمان أوزيريس إربا وتفريق أشلائه فى مختلف أرجاء الوادى وهكذا

على امتداد هذه المسرحية نجد أنفسنا إزاء هذه الثنائية : الخير والشر ، الخير ممثلا فى أوزيريس الذى كان مثالا للفضيلة وهذا ماركز عليه المؤلف ، والشر ممثلا فى أخيه ستْ .

ومن الملاحظ أن على أحمد باكثير يلجأ إلى تعبيرات وأقوال إسلامية ، مثل قول حوريس : لقد روى لى تحوت الحكيم عن والدى أوزيريس الشهيد أنه كان يقول : " إنما يتفاضل الناس بصفاء قلوبهم ، وسمو أخلاقهم ، لا بقوة سواعدهم " . وقول حوريس أيضا : إن تكن هذه مشيئتك يا أماه فسمعا وطاعة .. لقد سمعت من تحوت أن والدى كان يقول إن طاعة الأب واجبة وطاعة الأم أوجب " . بل إن باكثير فى المنظر السابع (المشهد الثانى) من المسرحية ، وهو الفصل الأخير يلجأ إلى حل إسلامى معروف شهدته كل الحروب الإسلامية وهو المبارزة بين حوريس ابن أوزيريس وبين ستْ عمه قاتل أوزيريس ومغتصب ملكه .

فيما يتعلق بمسرحية " فاوست الجديد " يحدثنا الدكتور محمد أبو بكر حميد بأنه "ليس عجبا أن يجد باكثير فى فاوست جوته لا فاوست مارلو البنية الفنية والفكرية الاساسية التى يريد أن ينطلق منها . فالأثر الإسلامى ليس بمستغرب على جوته لما هو معروف عنه من تأثره بالقرآن وإعجابه بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهذا لم يجد باكثير صعوبة فى إعادة صياغة هذه المسرحية بحيث تعبر عن المضمون الجديد الذى أراد أن يعبر عنه فى فاوست الجديد ، ويمد للأدب العربى جسرًا جديدًا يحمل التصور الإسلامى للعالم الغربى الذى ولدت فيه هذه الأسطورة ، وهو هدف من أهداف العبور بالأدب العربى إلى ثقافات أخرى وإلى آفاق عالمية " (١٤) .

وبالفعل فإن التصور الإسلامى واضح جدا فى هذه المسرحية أيضا : فالشيطان رمز للغواية ، وهو بما يملك من حيل ووسائل يمد لفاوست كل حبال

(١٤) د . محمد أبو بكر حميد ، المقدمة المذكورة ، ص ١٠ .

الوقوع فى الخطايا ، من النساء الجميلات ، إلى الكشوف العلمية ، والمال ، والجاه ، والشهرة وغير ذلك . يقول الشيطان مخاطبا فاوست : " ألم أمتعك بألوان النساء من مختلف بلاد العالم فيما عدا الإسكيمو – لكى أكون دقيقا فى كلامى أوروبا ودوقاتها وماركيزاتها لتختار كل ليلة منهن من تشاء ؟ . ثم إن الشيطان يذكره أيضا بأنه قدم إليه كل كنوز المعرفة : كهنة وادى النيل ، وحكماء الهند والصين ، وفلاسفة الإغريق ، فرأى سقراط بين تلاميذه وأفلاطون فى مدرسته ، وأرسطو وهو يعلم الاسكندر الأكبر – بل إن الشيطان أحضر له هيلين من الإلياذة ، هيلين الجميلة التى قامت من أجلها حرب طروادة . وهيلين هذه قد تجردت له ، أى لفاوست ، ولكنه امتنع عليها . ففاوست إذن رغم وقوعه أحيانا فى الخطيئة بتدبير من هذا الشيطان اللعين ، لكنه قد استطاع أن يعلو على غواية الشيطان ، وأن يكون مؤمنا موحدًا ، وأن يعرض عن المتع والملذات . وذات مرة يتمثل الشيطان فى شخص بارسليز ، صديق فاوست وتلميذه والمتآمر عليه فيما بعد ، ويعرض عليه عرائس من غير طينة البشر ، وهن إلاهات الجمال ، عشيقات الآلهة ، ولكن فارست يرفض كل هذا .

وبهذا يكون فاوست قد قاوم الغواية ، وانتصر لنفسه على الشيطان وقد كان مصيره النهائى القتل على يد بارسليز الذى كان يظن أنه بذلك يرضى الشيطان ، ولذلك طلب المكافأة منه ، لكن الشيطان رفض أن يقدم له المكافأة قائلا : لقد قتلت الرجل الذى كان أملى الوحيد ، وذلك أن الشيطان رأى أن طراز بارسليز موجود منه مئات الملايين من البشر فى كل جيل ، بينما عليه أن ينتظر جيلا بعد جيل وأحقابا بعد أحقاب قبل أن يعثر بينهم على مثل فاوست .